صفحات ناطقة من

جبران خليل جبران

البنفسجة الطموحة

كانت في حديقة منفردة بنفسجة جميلة التايا، طيبة العرف تعيش مقتنعة بين اترابها وتتهايل فرحة بين قامات الاعشاب

ففي صباح، وقد تكللت بقطر الندى، رفعت رأسها ونظرت حواليها فرأت وردة تتطاول نحو العلاء بقامة هيفاء ورأس يتسامى متشامخاً كأنهُ شعلة من النار فوق سرجة من الزمرد

ففتحت البنفسجة ثغرها الازرق وقالت منهدة — «ما اقل حظي بين الرياحين، وما اوضع مقامي بين الازهار. فقد ابدعتني الطبيعة صغيرة، حقيرة اعيش ملتصقة بأديم الارض ولا استطيع ان ارفع قامتي نحو ازرقاق السماء او احول وجهي نحو الشمس مثلما تفعل الوردة»

وسمعت الوردة ما قالتهُ جارتها البنفسجة فاهتزت ضاحكة ثم قالت — «ما أغباك بين الازهار، فانت في نعمة تجهلين قيمتها. فقد وهبتك الطبيعة من الطيب والظرف والجمال ما لم تهبه لكثير من الرياحين. تخلي عنك هذه الميول الوجاء والاماني الشريرة وكوني قنوعة بما قسم لك واعلمي أن من خفض جناحه رُفع قدره، وان من طلب المزيد وقع في النقصان»

فأجابت البنفسجة قائلة

— انت تمزينني ايتها الوردة، لانك حاصلة على ما اتمناه، وتغمرين حقارتي بالحكم لانك عظيمة. ما امرّ مواعظ السعداء في قلوب النساء. وما اقسى القوي اذا وقف خطيباً بين الضعفاء!»

وسمعت الطبيعة ما دار بين الوردة والبنفسجة فاهتزت مستغربة ثم رفعت صوتها قائلة

— «ماذا جرى لك يا ابنتي البنفسجة؟ فقد عرفتك لطيفة بتواضعك عذبة بصغرك شريفة بمسكنتك، فهل استهوتك المطامع القبيحة، ام سلبت عقلك العظمة الفارغة؟»

فأجابت البنفسجة بصوت ملؤه التوسل والاستعطاف

— «ايتها الام العظيمة بجبروتها، الهائلة بغناها، اضرع اليك بكل ما في قلبي من التوسل وما في روحي من الرجاء ان تجيبي طلبي وتجعليني وردة ولو يوماً واحداً»

فقالت الطبيعة — «انت لا تدرين ما تطلبين وما تطمعين ما وراء العظمة الظاهرة من البلايا الخفية فاذا رفعت قامتك وبدلت صورتك وجعلتك وردة تندمين حين لا ينفع الندم»

فقالت البنفسجة — «حولي كياني البنفسجي الى وردة مديدة القامة ، مرفوعة الرأس ومهما يحلّ بي بعد ذلك يكن صنع رغائبي ومطامعي »

فقالت الطبيعة — «لقد اجبت طلبك ايتها البنفسجة الجاهلة المتمردة ولكن اذا داهمتك المصائب فلتكن شكواك من نفسك » ومدت الطبيعة اصابعها الخفية السحرية ولمست عروق البنفسجة فتحولت في لحظة الى وردة زاهية متعالية فوق الازهار والرياحين

***

ولما جاء عصر ذلك النهار تلبد الفضاء بغيوم سوداء مبطنة بالاعصار ثم هاجت سواكن الوجود فأبرقت وأرعدت واخذت تحارب تلك الحدائق الانصاب واقتلعت الازهار المتشامخة ولم تبق الاّ على الرياحين الصغيرة التي تلتصق بالارض او تختبىء بين الصخور

اما تلك الحديقة المنفردة فقد قاست من هياج العناصر ما لم تقاسه حديقة اخرى

فلم تمر العاصفة وتنقشع الغيوم حتى اصبحت ازهارها هباءً منثوراً ولم يسلم منها بعد تلك المعمعة الهوجاء سوى طائفة البنفسج المختبئة بجدران الحديقة

ورفعت احدى صبايا البنفسج رأسها فرأت ما حل بأزهار الحديقة وأشجارها فابتسمت فرحاً ثم نادت رفيقاتها قائلة

— «الا فانظرن ما فعلتهُ العاصفة بالرياحين المتشامخة تيهاً واعجاباً»

وقالت بنفسجة اخرى — «نحن نلتصق بالتراب، ولكننا نسلم من غضب العواصف والانواء»

وقالت بنفسجة ثالثة — «نحن حقيرات الاجسام غير ان الزوابع لا تستطيع التغلب علينا»

ونظرت اذ ذاك ملكة طائفة البنفسج فرأت على مقربة منها الوردة التي كانت بالامس بنفسجة وقد اقتلعتها العاصفة وبعثرت اوراقها الرياح والقتها على الاعشاب المبللة فبانت كقتيل ارداهُ العدو بسهم

فرفعت ملكة البنفسج قامتها ومدت اوراقها ونادت رفيقاتها قائلة - «تأملن وانظرن يا بناتي . انظرن الى البنفسجة التي غرتها المطامع فتحولت الى وردة لتشاغ ساعة ثم هبطت الى الحضيض. لكن هذا المشهد امثولة لكنّ»

***

عندئذ ارتعشت الوردة المحتضرة واستجمعت قواها الخائرة وبصوت يتقطع قالت :

— «الا فاسمعن ايتها الجاهلات المقتنات، الخائفات من العواصف والاعاصير. لقد كنت بالامس مثلكنّ اجلس بين اوراق الخضراء مكتفية بما قسم لي، وقد كان الاكتفاء حاجزاً